من كفاح مكة إلى استقرار المدينة

إن الاستقرار يؤثر في قضية التدين، لأنه جاذب أرضي، فحينما يستقر الإنسان يبدأ في التفكير والزواج والإنجاب والتربية والتملك، ثم أن الاستقرار سكون، لا حركة، والذين يفتقدون الاستقرار يجاهدون ويستنفرون كل قواهم لتحصيله، أما الذين يعيشون الاستقرار فلا يجاهدون من أجل شيء، لذلك فالنضال وليد انعدام الاستقرار، بينما الاستقرار يولد الخمول، وبملاحظة سريعة للشعوب المستقرة منذ عقود أو قرون، وبين الشعوب التي لم تذق إلى اليوم طعم الاستقرار، يظهر ما بين هذه وهذه من الفوارق النفسية، إذ أن هناك فرقاً كبيراً بين استجابة من انغرز في الأرض وارتبط بحمأتها بتجارة وأولاد ولم يحَدّث نفسه يوماً إلا بزيادة التصاق، واستجابة من هو على سرج فرسه يطير بها مشرّقاً ومغرباً، لا دار له ولا قرار.

إن دراسة النمط السلوكي للعائلة الفلسطينية سيظهر لنا أن هذه العائلة اكتسبت واقعاً عقدياً ونفسياً يتلاءم مع متطلبات المعركة، واحتمالات التعرض للقصف، والقتل والتدمير في كل لحظة، وطبعاً فهذه النفسية المتحفزة لاستيعاب الخطر ليست موجودة عند عائلة في منطقة مستقرة، لذلك اعتبر الإسلام من يموت دون أن يغزو أو يحدث نفسه بالغزو ميتاً على الجاهلية.

إن تحديث النفس بالغزو يعني البقاء في حالة رباط واستنفار، أما إذا بردت همة الأمة بالاستقرار فإنها تزول، بسبب أن هذا الاستقرار يصل

بالناس إلى طلب الكماليات والتباهي بها، في الوقت الذي لا يجد فيه فاقدو الاستقرار ضروريات العيش، وهذا هو الفارق الدقيق بين من تعوّد على رغيد العيش وبين مخشوشن.. هل يستويان مثلاً؟!!

لذلك يجب أن نتأمل المرحلة المكية جيّدا لنضع أيدينا على سر كبير، وهو أن هذه المرحلة منعت الصحابة رضي الله عنهم الاستقرار، كما منعتهم بذلك من الالتصاق بالأرض، وبالتجارة والأسرة، والدار.. لقد عاشوا تلك المرحلة مستنفرين ينتظرون الأذى في كل منعرج، ومع كل طارق باب.. جُردوا من أموالهم، وهُجروا من ديارهم وبلادهم إلى الحبشة مرتين، ثم إلى المدينة، ولم يعد لهم أمن لا على أنفسهم ولا على أموالهم، لذلك فقد تقللوا من أثقال المادة روحياً، واستعوضوا الله في كل ما يملكون، فزكت بذلك أنفسهم، وكان بديهياً حين ضعف تأثير جاذبية الأرض فيهم أن يرتقوا نحو الأعلى.. وذلك الذي كان فعلاً، فظهرت منهم نماذج رائعة خطت على صفحات التاريخ أمثلة مذهلة للتجرد والصدق والبذل. وكان لابد أن يكون لهذه المرحلة ثمرة، وكانت ثمرتها إقامة دولة المدينة، التي بقيت ومضة نورانية مذهلة في تاريخ البشرية بأكمله. وبعد ذلك بدأت مرحلة أخرى هي مرحلة الاستقرار، وبدأ التملك والتشييد، وهنا ظهرت أقوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ توجه الصحابة أنه لا يخاف عليهم الفقر، ولكن يخاف عليهم أن تبسط عليهم الدنيا رداءها فتهلكهم، وكان نتاج مرحلة الاستقرار تلك ما جاء بعدها من قرون الضعف وذهاب الريح.

وفي كتابه «الليكساس وشجرة الزيتون» يلفت الكاتب الأمريكي توماس فريدمان الأنظار إلى قضية هامة، وهي أن العرب الموحدين قبل الإسلام، إنما كانوا من البدو الذين لا يستقرون في مكان، فقد دلّت

الدراسة التاريخية أن القبيلة إذا استقرت اختارت لها صنماً قريباً من مضاربها في جبل أو هضبة، وراحت تعبده.. أما القبائل المرتحلة التي لا تعرف الاستقرار، فقد كان يتعذر عليها أن تقيم إلهها في صخرة في مكان ما، ثم ترحل وتتركه، لذلك كان عليها أن تفكر في وسيلة تجعل إلهها دائماً معها، في حلها وترحالها الكثير، ولم يكن أمامها سوى أحد أمرين، إما صنع آلهة خفيفة الحمل، مثلما كان يفعل عمر بن الخطاب حين يذهب إلى الرعي فيأخذ معه إلهاً من تمر، يأكله بعد ذلك حين يجوع، أو، وهو الأمر الهام، أن يعتقد هؤلاء الرُحَّل، أن الله لا يمكن أن يكون في مكان معين على الأرض يفقده المرتحلون، الله موجود في السماء وهو مع عباده أينما وجدوا.. وهكذا فإن عقيدة التوحيد كانت حلاً لهؤلاء.

إن هذا يجرنا إلى الحديث عن الإفراز المادي الحضاري، فكل حضارة لها إفراز مادي يتمثل في تشييد العمران، وإنتاج المظهر المادي للإبتكار وهو ما يسميه البعض اليوم بالتكنولوجيا. والبعض يعتبر التعمير اللحظة العليا في مدارج الدورة الحضارية، وهذا خطأ، وقد نكون أول من قال هذا، لكن هذا الذي نعتقده، وأن لحظة التعمير هي بداية النهاية لكل حضارة، وتبقى اللحظة المثالية هي لحظة الكفاح الأول الذي يسبق الاستقرار والتعمير، وهي المرحلة التي يبلغ فيها الإيمان بالفكرة أوجَهُ، وتصل فيها التضحيات من أجلها حد الأساطير.. في هذه اللحظة يكون العطاء من أجل الفكرة، العقيدة، لأن القتال يغلب فيه احتمال الموت عادة، وهو ما يقلص المنفعة الذاتية، ويغلب جانب التضحية من أجل الفكرة لا من أجل النفس، أما في مرحلة البناء، فإن النفس تستريح لتبدأ مرحلة التضحية من أجل الذات، فتبدأ ببناء بيت ومحل تجارة، ثم تعلي

البناء حتى يتطاول، وينحو المجموع إلى ذلك حتى يظهر ذلك عمراناً حضارياً، والملاحظ أن هذا العمران لا ينتج إلا في مرحلة «العمل للنفس»، وهي مرحلة الاستقرار التي تأتي بعد مرحلة «العمل للفكرة»، لذلك فإن العمران معناه بداية الانهيار والأفول الحضاري لا العكس كما يتوهم البعض، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن المرحلة القادمة مرحلة استقرار وبداية تراخ، وستكون علامتها العمران، لذلك كان أول عمل قام به صلى الله عليه وسلم هو بناء مسجد.

إن المسجد عمران وهو حد فاصل بين أمرين، بين فكرة ومادة، فهو من الناحية الفكرية القيمية لله، وللصلاة وللعبادة، وهذا ما يميزه عن باقي البيوت، أما من الناحية المادية فهو بيت من حجارة وليس كبقية البيوت، لذلك تلتقي فيه الفكرة والمادة، ويصلح رباطاً بين مرحلتين، مرحلة مكة المتسمة بالتجرد للفكرة وبعدم الاستقرار، ومرحلة المدينة التي تمثل الاستقرار وبداية الانغماس في المادة... والمسجد فيه فكرة مكة ومادة المدينة، وهو واقع في المسافة الفاصلة بينهما، لا إلى هذه ولا إلى هذه، تماماً كما هو موقعه في قباء، لا إلى مكة ولا إلى المدينة.

إن مرحلة الاستقرار لا تعرف شيئاً اسمه المسجد، إنها تعرف فقط: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا»، فالمسجد سمة للاستقرار، لذلك فإنه لم يسلم بعد ذلك من صبغة عقلية الاستقرار عند المسلمين، فخضعت فكرته للضمور والإهمال على حساب مادته التي أصبح الناس يتباهون بها ويتنافسون في إظهارها، حتى غدت المساجد مجرد متاحف يزيغ فيها البصر ويفتقد فيها الخشوع.

إن استثمار الفتنة أو الابتلاء فن من فنون القيادة، والقائد الذي لا يبني بعطاءات وتضحيات جنوده الفذة في مرحلة ما بنيان فكرته، لا

يستطيع أن يبني ذلك في مرحلة أخرى تخبو فيها هذه الروح، لذلك فإن التتالي المرحلي الطبيعي هو أن يكون بعد مرحلة اللا استقرار والفتنة تمكين، وهذا الذي نلاحظه في آيات القرآن، وفي الأحاديث الشريفة، وكذا باستقراء التاريخ، أما أن تعيش الجماعات مراحل نضال ولا استقرار، دون أن تحلب من عطاءاتها وتضحياتها شيئا في إناء التمكين، فلماذا تكون تلك التضحيات أصلاً؟!!

وما الفائدة منها؟!!

أهي تضحيات لأجل التضحية فقط؟!!

إن انعدام التتالي المرحلي هو الذي كان دائماً ينهي عطاءات الجماعات الإسلامية إلى الفشل، ويعيد الأمور إلى الصفر، أو يبقيها في إطار المراوحة في نقطة واحدة.

إن الجهد الإضافي معناه الحصول على نتائج إضافية، أما إذا كان الجهد الإضافي معناه المراوحة، أو التراجع في النتائج، فمن الأحسن ألا يكون، وهنا يجب ملاحظة شيء هام وهو أن دراسة تاريخ الجماعات الإسلامية يسهّل ملاحظة النهايات النسبية التي تصل إليها هذه الجماعات بعد كل مرحلة نضال، بل إن العديد من الجماعات التي تبنت خيار القوة قد جاءت مشاريعها بنتائج عكسية فظيعة ردت فيها الأمور إلى عقود سبقتها، بما يعنيه ذلك من ضياع لجهود تربوية كانت قبل تبني الخيار العسكري.

إن استثمار الواقع الأليم الذي تعيشه الجماعات الإسلامية استثماراً جيداً سيعطي بلا شك نتائج جيدة، لكن المشكلة أن هذه الجماعات تعودت على العطاء دون أخذ، ولهذا فبلالها يعرّض ظهره للسوط، لا

ليكون بعد عشر سنوات يرفع نداء التوحيد عزيزاً، بل ليبقى ظهره يتمزق تحت السياط عقدا... وعقداً... وقرناً..

إن قراءة مشهد التيه اليهودي قبل سنة ١٩٤٨ سيعطينا صورة واضحة ومثالاً بارزاً عما قصدناه هنا، فاليهود اكتسبوا خلال فترات التيه الطويلة، عقيدة قائمة على وجوب الانتصار، لعلمهم أنه لا يوجد هناك وقود للقضية أقوى من الابتلاء والشدّة. لذلك استطاعوا أن يحولوا أكذوبة الهولوكوست من محرقة اكتووا هم بنارها إلى محرقة تكوي أعداءهم، ومنهم ألمانيا التي أصبحوا يبتزونها «بهذا العار» صباح مساء، واستفادوا من التيه ومن الهولوكوست ومن غير ذلك. إنه فن الاستفادة من الألم وتحويله إلى انتصار، تماماً كما تحول ظهر بلال وعمار وخباب إلى قواعد للدولة الإسلامية.